محمد فاروق النبهان
- ❖ دار الحديث الحسنية، الرباط
- ❖ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (2)، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، 1412هـ/1992م، ج3، المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية التربوية، ص 265–287 [23 صفحة من القطع المتوسط].
- ❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- ❖ مجال البحث (الكتاب): الصحة النفسية – التراث الإسلامي.

❑ ❑ ❑

بدأت الورقة بسرد تأريخي بسيط عن دراسة النفس الإنسانية مركزة منذ البداية على كتب وفلاسفة التراث الإسلامي عامة، ثم التركيز على وجهة نظر كل من (أبو حامد الغزالي) و(أبو علي مسكويه) في النفس الإنسانية ومفهوم الصحة النفسية عند كل منهما.

ويعتقد الباحث أن كتاب (إحياء علوم الدين – الغزالي) كان عرضاً، من وجهة نظر الكاتب، لنظرية الغزالي في النفس البشرية كما تصورها ورآها وعاش تجربتها بنفسه التي أعانته على معرفة خفايا النفس وبواعثها وأسرارها. وقد أشار الباحث إلى كتاب (المنقذ من الضلال/ الغزالي) كسيرة أو تجربة ذاتية للإمام الغزالي التي كشف فيها قصة الصراع النفسي التي عاشها بذاته.

* أما ما يتعلق بأبي علي مسكويه (المتوفى عام 421هـ) فقد نظر الباحث في مقالته السادسة من كتابه «تهذيب الأخلاق» التي جاءت على صحة النفس، وأمراض النفس وأسباب شقائها ذاكراً العلل ومعرفاً بوسائل العلاج.

* ثم يبدأ الباحث بعقد المقارنة بين المنهجيتين أو وجهتي النظر التراثيتين (الغزالي، مسكويه) حيث يرى أن مسكويه قد غلب عليه المنطق العقلي والمنهج الفلسفي في التحليل والإقتناع، في الوقت الذي اختار فيه الغزالي منهجاً مغايراً يعتمد على منطق ذوقي ووجداني تأثر به من خلال انصرافه إلى التصوف.

* نقطة مقارنة أخرى، عقدها الباحث، في أن مسكويه تطلع إلى الكمال الذاتي كأرقى غاية تتطلع إليها النفس، بينما لا يعتبره الغزالي -أي الكمال الذاتي- غاية مرجوة، مركزاً على غاية المعرفة والتي لا تتحقق إلا بعد أن تكون النفس قد وصلت لدرجة الكمال وأصبحت مستعدة لمعرفة الحقيقة التي تنطبع في النفس انطباعها في المرآة الصافية النقية.

* أما معنى النفس عند مسكويه فهي «قوة آلهية غير جسمانية» مستمدة قوتها من الله مرتبطة بالبدن لا تفارقه إلا بمشيئة الله. فالنفس متعلقة بالبدن وتتغير بتغيره من حيث الصحة والمرض. ويرى مسكويه أن آثار المرض النفسي تظهر على البدن ليبدو عليلاً هزيلاً، وتأثيره - أي المرض - على مشاعره وعواطفه كالحزن والغضب والعشق وكلها تؤثر سلباً على البدن.

أما علاج النفس فتبدأ أساساً بالبحث عن أسباب المرض التي ترسم -عند معرفتها- سبل العلاج الملائم.

أما أسباب المرض عنده فهي:

- إما أسباب مصدرها الذات وناتجة عن التفكير في الأشياء الرديئة
- وإما أسباب مصدرها المزاج والحواس الناتجة عن الإعتدال فيها

ومن أهم وسائل علاج المرض النفسي عند مسكويه هو طريق معاشرة أهل الفضائل (لأن النفس الصحيحة تحب الفضيلة) والصداقة، لأنها توفر المناخ الملائم لنمو الفضائل في النفس. أما محبة اللذات البدنية والجسمية فهي جبلة أولى وفطرة سابقة للإنسان يزم بها نفسه بزمام العقل ليقتصر على الضروري والمشروع منها.

* ويعود الباحث مرة أخرى ليقارن بين مسكويه والغزالي: بين نظرة مسكويه التي قرن بها الصحة النفسية بالفضيلة وبين توجه الغزالي (في كتاب الإحياء) الذي يرى هو كذلك أن سبل النفس إلى الرذيلة خارجة عن طبع الإنسان بحكم تكوينها، وأن صحة النفس وسلامتها تأتي عن طريق الإعتدال لأن المرض هو الميل عن الإعتدال، وأن الأعتدال في النفس هو صحة لتلك النفس.

ثم يعقد الباحث مقارنة ثانية بين التراث الإسلامي والمنهج النفسي الحديث حيث يرى علم النفس المعاصر أن الصحة النفسية عملية تكيف أو توافق للفرد مع النفس، لأن التكيف لا يحدد طبيعة السلوك الإنساني للإندماج في مجتمعه إن كان مجتمع فضيلة أو رذيلة. فالفضيلة ليست هدفاً لعلم النفس الحديث وهي ليست من مستلزمات الصحة النفسية أساساً، بل قد تكون بنظرهم من مستلزمات الشذوذ.

* ثم يعرج الباحث إلى مفهوم رياضة النفس التي يراها مسكويه بأنها «النظر والفكر»، فمتى تعطلت النفس عن النظر وعدمت الفكر تبلّدت وتبلّهت وانقطعت عن مادة كل خير وانسلخت من صورتها الخاصة لترجع إلى رتبة البهائم.

أما رياضة النفس عند الغزالي فهي مجاهدة النفس ومغالبتها لكي تعود إلى الإعتدال، ولا تكون معالجة المرض النفسي إلا بضده، إذ أن الرذيلة لا تعالج إلا بالفضيلة.

* والمفهوم الأخير الذي يطرحه الباحث من مفاهيم الصحة النفسية هو مفهوم عقوبة النفس، وهنا يتفق مسكويه مع الغزالي في بعض الرياضات النفسية كمقاومة تطلعات النفس وميولها. ويرى مسكويه ضرورة معاقبة الإنسان لنفسه إذا ما ارتكب إثماً أو ذنباً وذلك عن طريق اتباع منهج قسري مغاير لرغبات نفسه:

- «فإن غضب فأنكره على نفسه، عليه أن يتعرض لسفيه يعرف بالبذاء، أو يفرض على نفسه مالاً يتصدق به كنذر لا يخل به.
- وإن أنكر من نفسه كسلاً وتوانياً فليعاقب نفسه بسعي فيه مشقة أو صلاة فيها طول».

ويرى الباحث أن الغزالي أكثر وضوحاً واقتناعاً بمجاهدة النفس التي خصص لها أبواب أمراض القلوب وحالات النفس وعوارضها، والتي يراها الباحث نظرية متكاملة جديرة بالدراسة والإهتمام.

لينتهي الباحث بعدها إلى تأشير أصالة الفكر الإسلامي وتميزه في مجال

النفس ومفهومها وعلاج أمراضها، وهي مؤشرات لأخلاقية الفكر الإسلامي وسمو نظرته إلى الإنسان ككائن عاقل.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الصحة النفسية، معنى النفس، علاج النفس، الصحة النفسية والفضيلة، رياضة النفس ومجاهدتها، عقاب النفس، المنهج الإسلامي للصحة النفسية.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- حدد العنوان مرجعية الباحث في التراث بأبي حامد الغزالي وأبي علي مسكويه وأجرى مقارنات عدة بين منهجية كل منهما في تشخيص المرض وتسبيبه وعلاجه.
- ولا يستطيع أحد الطلب من الباحث أن يزيد عنهما لأن هذه هي حدود بحثه. إلا أن المقارنة بين المنهجين (الغزالي، مسكويه) من خلال كتابيهما (الأحياء، تهذيب الأخلاق) على التوالي في رأيي غير عادلة. وهنا لا تختلف المنهجيتان بسببهما كأشخاص إنما بسبب اختلاف طبيعة الكتابين. فإحياء علوم الدين كتاب شامل فيه الفقه والتصوف والعلم والتعلم . . . . إلخ، أما تهذيب الأخلاق (رغم بعض الشك في انتساب الكتاب إلى مسكويه) فهو كتاب مباشر ومحدود .
- وإن كانت المقارنة في هذه المفاهيم فقط بين الإثنين بغض النظر عن الكتاب فإن الغزالي له من الكتب والرسائل الأخرى التي جاءت على النفس والأخلاق والمرض النفسي وخاصة كتابي (المستصفى، ومعارج القدس في معرفة النفس).
- من هنا أرى أن المقارنة عقدت بين كتابين أكثر مما هي بين عالمين.

❑ ❑ ❑